إعمال الإعجاز العلمي بين الاعتبار الشرعي والنظر العقلي

د/ عبد الفتاح بن اليماني الزويني*

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، حمدا كثيرا طيبا مباركا، أستفتح به أبواب الدخول لدراسة تجليات الآيات الكونية بين نفحات الاعتبار الشرعي المجيد وإيحاءات النظر العقلي السديد، وأستنجح به مقاصد بره للوصول إلى منتهى السول وغاية المأمول، وأستوهب به توفيقا يكتب به الرضا والقبول، وتسديدا يصون عن الخطأ والذهول في سلوك سبيلي المنقول والمعقول.

وأصلي وأسلم على نبيه ورسوله سيدنا محمد ﷺ أكرم نبي وأشرف رسول، المبعوث بأرفع دليل وأنفع مدلول، المنصوص على نبوته بأقلام المعجزات، وبنان المنقول في سطور الصدور، وطروس النقول.

وعلى آله وأصحابه السادة البررة العدول، الذين عليهم المعول في الهداية وإليهم العدول، ما حرر منقول وحبر مقول.

ورحم الله أئمتنا الفحول، الذين أدركوا بالاجتهاد مناط العلة والمعلول، وأزالوا بسبر الأدلة قوادح الشبه عن الدليل والمدلول، وأفتوا كل مستفتٍ وسؤول، ويسروا الوصول إلى تفسير وقائع الدهور، فشكر الله لهم ما حقق المفهوم قلبٍ عَقول، وما لهج بالمنطوق لسان قَؤول.أما بعد:

فموضوع البحث يتعلق بإعمال الإعجاز العلمي بين الاعتبار الشرعي والنظر العقلي، لما بين الكتاب المسطور(الآيات الكونية) والكتاب المنظور(المظاهر والسنن الكونية) من تشابهٍ ووحدةٍ واتساقٍ وتكاملٍ، إذ إنهما ينطقان بالحقائق ذاتها، ويتسمان الخصائص نفسها حتى كأن الوحي كَوْنٌ مقروء، والوجود الكوني وحي مقروء.

فللبحث أهمية عظيمة تتعلق بجدته، وبارتباطه في العمق بالجانب المنهجي لهذا المشروع الجديد الواعد، يروم سد الثغرات العلمية التي اعترت بعض جوانبه التطبيقية،

---

* محاضر بجامعة القاضي عياض/ مراكش. المغرب.

ويتوخى الإسهام بموضوعية علمية في بناء صرح عتيد له، يقيه مزالق الكبوة، وزلات الإفراط، ومهاوي التفريط.

والبحث يتكون في مجمله من خمسة مباحث، بتوزيع ثلاثة مطالب على كل مبحث؛ تناولت في المبحث الأول: معايير المنهج الرباني في تبليغ رسالاته وتأييد رسله بالمعجزات، وقد جاء منشطرا إلى ثلاثة مطالب، خصصت الأول لمعيار العالمية والتجدد، والثاني لمعيار الاستمرارية والخلود، والثالث لمعيار الاتساق والتوافق.

ويهتم المبحث الثاني بالمنطلقات الشرعية للإعجاز العلمي في الاعتبار الشرعي، أشرت في مطلبه الأول إلى مظاهر التنويه -المقرون- للاعتبار الشرعي بالعلم والنعم الكونية، وفي الثاني وقفت على تجليات دعوات البلاغ القرآني للتفكر في الآيات الكونية، والثالثُ يعنى باتساق أصول المعرفة الإسلامية.

وتناولت في المبحث الثالث مرتكزات النظر العقلي السديد، حيث يركز أول مطالبه على مرتكز الفهم السديد للقرآن المجيد، وثانيها: يكشف الغطاء عن مرتكز الوحدة في مختلف تجلياتها الكونية (وحدة الخالق، وحدة الخلق، وحدة المعرفة...)، والثالث يميط اللثام عن خاصية التكامل في تعدد وتباين أبعادها الكونية (تكامل النقل والعقل، تكامل عالمي الغيب والشهادة، تكامل الوحي المقروء والوحي المنظور...)

وانتقلت في المبحث الرابع إلى الموازنة بين الاعتبار الشرعي والنظر العقلي السديد؛ مشيرًا في أول مطالبه إلى حتمية الاتساق بينهما، وإلى الوعي بعلوم القرآن ومباحثه، وبعلوم العصر وقوانينها في المطلب الثاني، وشرحت كيفية الترجيح عند التعارض بين الاعتبار الشرعي والنظر العقلي في المطلب الثالث.

أما المبحث الخامس، فخصصته للثمرات العلمية، عددت بعضا منها في ثلاثة مطالب، أولها: ثمرة تفتيق منهج جديد في تفسير الآيات الكونية يتسم بالجدة والرصانة، وثانيها: ثمرة عِلمية مشروع الإعجاز العلمي وموضوعيته، وثالثها: ثمرة انفتاح المعرفة الإنسانية على أصول المعرفة الإسلامية ومناهجها.

ثم ختمت الدراسة بخاتمة أوجزت فيها أهم النتائج والتوصيات والمقترحات.

المبحث الأول: معايير المنهج الرباني في تبليغ الرسائل السماوية وتأييد رسله بالمعجزات.

المطلب الأول: معيار العالمية والتجدد

لقد جاء الخطاب القرآني في كثير من المواضع دالا على عالمية رسالة الإسلام، وأنه خطاب موجه إلى مطلق الإنسان بغض النظر عن جنسه أو لونه أو إقليمه في نسق عالمي كوني؛ هذا الكون الذي اتجهت إرادة الله تعالى إليه فأوجدته، فأودع فيه سبحانه وتعالى قوانينه التي يتحرك بها، وتتناسق بها حركة أجزائه فيما بينها كما تتناسق حركته الكلية سواء بسواء، قال سبحانه وتعالى:﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾ (1).

ومن منطلق عالمية هذا التوجه؛ تبلورت هذه الدعوة الأخيرة الخاتمة الناسخة للدعوات السابقة؛ فجاءت رسالة مفتوحة إلى الأمم كلها، وللأجيال كلها، فناسب أن تكون معجزتُها مفتوحةً متجددة، لكل أمة ولكل جيل، معجزة خالدة تضمن عناصر الخلود في تجددها مع كل فتح بشري في آفاق العلوم وأسرار الكون، والمعارف ذات الصلة بمعاني الوحي الإلهي؛ لذلك يظل الوحي المقروء دليلًا قاطعًا على نبوة خاتم المرسلين، والوحي المنظور دليلًا ساطعًا على ربانية الوحي المقروء، قال فيه الباري عز وجل: ﴿أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ (2)"أي: فيه علمه الذي أراد أن يطلع العباد عليه، من البينات والهدى والفرقان، وما يحبه الله ويرضاه، وما يكرهه ويأباه، وما فيه من العلم بالغيوب من الماضي والمستقبل."(3).

المطلب الثاني: معيار الاتساق والتوافق:

يتجلى هذا المعيار بجلاء من خلال تأييد الباري – عز وجل - رسله بمعجزات هي من جنس ما نبغ فيه القوم المرسل إليهم، فكان لكل رسول معجزةٌ تناسب قومه ومدة رسالته، فلما كانت الرسل قبل خاتم النبيئين ﷺ يبعثون إلى أقوامهم خاصة، ولأزمنة محدودة، فقد أيدهم الله ببينات حسية، يقول ابن الجوزي(ت597هـ):"الإشارة

---

(1) الفرقان: 2.

(2) النساء: 166.

(3) تفسير ابن كثير، ج/1، ص: 590.

بالآيات إلى الحسيات كناقة صالح، وعصا موسى، وإحياء الموتى؛ فهذه معجزات ترى بعين الحس، ومعجزة نبينا الكبرى: هي القرآن الفصيح، فهي تشاهد بعين العقل."[1].

إذ لما كان نبوغ قوم موسى - عليه السلام - في مجال السحر كان التأييد بمعجزة العصا التي اكتسحت حبائل السحرة التي خيل للناظرين أنها تسعى، ولما نبغ قوم عيسى - عليه السلام - في ميدان الطب كان التأييد بمعجزة هي من جنس ما نبغوا فيه من طب وصيدلة، فكان يحيي الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله،وهو قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾[2]، كذلك الأمر بالنسبة لخاتم الرسل والأنبياء سيدنا محمد -ﷺ- حينما أيده الله - عز وجل - بمعجزة القرآن الكريم في قوم بلغوا قمة النبوغ الأدبي واللغوي، إذ نبغوا في اللغة العربية وفصاحتها وبلاغتها وما يتصل بها من أساليب الكلام.

يقول ابن الجوزي:"على أنه لم يكن للأنبياء معجزة إلا ولنبينا من جنسها؛ فإن الرعب الذي أُيد به كان يُوقع في قلوب أعدائه ما لم تُوقعه عصا موسى في قلب فرعون، ونَبْعُ الماء من بين أصابعه أحسن من ظهوره من حجر موسى، إذ العادة قد جرت بجريانه من حجر، وخطاب الذراع المسموم له أعجب من تكليم الموتى لعيسى"[3].

والملاحظ في هذا السياق أن أساليب التأييد والتحدي متعددة، إلا أن هناك نظمًا ظاهراً للعيان يجمعها في إطار الوحدة وإن تعددت وتباينت، وهو ما اصطلحتُ على تسميته بمعيار: "الاتساق والتوافق"؛ وهو معيار من ثوابت المنهج الرباني في تبليغ الرسائل السماوية وتأييد رسله بالمعجزات، إذ هذا المعيار هو المفسر لتعدد أساليب التأييد والتحدي عبر زمن إرسال الرسالات السماوية، حتى بعد انقطاع الوحي.

يقول ابن تيمية(ت728هـ):"والآيات نوعان، منها ما مضى وصار معلوما بالخبر، ومنها ما هو باقٍ إلى اليوم كالقرآن والإيمان والعلم الذيْن في أتباعه، وكشريعته التي جاء بها..."[4].

(1) كشف المشكل، ج/3، ص: 412.

(2) المؤمنون: 50.

(3) كشف المشكل، ج/3، ص: 413.

(4) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ج/5، ص: 420.

إذ إنه مع انقطاع الوحي، فإن اللهَ تعالَى قد أودع في رسالته الخاتمة عناصر الاستمرارية والخلود من منطلق معيار الاتساق والتوافق، وتظهر ملامح هذا الاتساق في تأييد المولى - عزوجل - رسله ببينات متنوعة، تكون من جنس ما نبغ فيه المبعوث فيهم، ولما كانت الرسالة المحمدية خاتمة الرسالات السماوية إلى الإنسانية جمعاء باختلاف عصورهم وثقافاتهم ومداركهم، فإن اللهَ تعالَى يؤيدها ببينات متنوعة تتناسب مع جميع من أرسل إليهم إلى يوم القيامة.

عن أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- قال: "ما من الْأَنْبِيَاءِ من نَبِيٍّ إلا قد أُعْطِيَ من الْآيَاتِ ما مثْلُهُ آمَنَ عليه الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كان الذي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَى الله إلي، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يوم الْقِيَامَةِ"[1].

يصرح ابن حجر(ت852هـ) بعد أن أدرج مختلف الآراء المتعلقة شرح هذا الحديث بالقول: "وقيل المراد أن معجزات الأنبياء انقرضت بانقراض أعصارهم، فلم يشاهدها إلا من حضرها، ومعجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة، وخرقه للعادة في أسلوبه وبلاغته وأخباره بالمغيبات؛ فلا يمر عصر من الأعصار إلا ويظهر فيه شيء مما أخبر به أنه سيكون، يدل على صحة دعواه، وهذا أقوى المحتملات"[2].

ومن هذا المنطلق يظهر بأن مشروع الإعجاز العلمي له ما يعضده في خضم ما توصلت إليه البشرية اليوم، وما ستتوصل إليه مستقبلا من تقدم علمي وتكنولوجي، وتنوع في الاختراعات والاكتشافات، فتبعا لمعيار الاتساق والتوافق؛ فإن المعجزة القرآنية الخالدة والمتجددة تكون قد أخذت مظهرا جديدا في تحدي الإنسانية اليوم ترتكز على إقامة الحجة العلمية عليهم؛ الشيء الذي يحيلنا إلى معيار آخر معضد لمعيار الاتساق والتوافق، يُبقي المعجزة القرآنية في نسق الاستمرارية والخلود مخاطبة لكل الأجيال باختلاف مداركهم وثقافاتهم وعلومهم.

المبحث الثالث: معيار الاستمرارية والخلود

يبرز هذا المعيار من منطلق تخصيص النبي الخاتم -ﷺ- بخاصية الجمع بين المعجزة والرسالة في كتاب واحد، فكانت بذلك معجزة مستمرة وقائمة إلى يوم الدين؛ تتحدى

(1) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان، ح/152، ج/1، ص:134.
(2) فتح الباري، ج/9، ص:7.

الناس في كل العصور على اختلاف ثقافتهم ومعارفهم وعلومهم؛ فإعجاز الرسالة الخالدة عام في كل أنواع المعرفة الحقة.

فإن كان الاتساق والتوافق من ثوابت المنهج الرباني في تبليغ الرسائل السماوية وتأييد رسله، فإنه يمشي جنبا إلى جنب مع معيار الاستمرارية والخلود بوصفه معياراً يميز المعجزة القرآنية الخالدة، وبناء على هذا الأساس، فليس من الصعب والمستبعد أن تبقى المعجزة القرآنية مخاطبة كل الأجيال البشرية بما يناسب نبوغها، فتجددها بتجدد العصور هو سر خلودها، وخلودها كذلك مبني على تجدد المعجزات في المعجزة القرآنية الخالدة، حيث إنها بهذا النسق الذي تغلب عليه الاستمرارية والخلود تكون قد أقامت على الإنسانية في الوقت الحاضر البينة العلمية من خلال الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

ولقد أشار البلاغ القرآني إلى هذا المعيار في قول الحكيم العليم: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْءانَ مِن لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾[1]، وهذه الإشارة القرآنية لم تكن لتغيب عن فهم أهل التفسير، إذ يصرح أبو السعود(ت982ه): "أي: حكيم وأي: عليم، وفي تفخيمهما، تفخيم لشأن القرآن، وتنصيص على علو طبقته -ﷺ- في معرفته، والإحاطة بما فيه من الجلائل والدقائق، فإن من تلقى العلوم والحكم من مثل ذلك الحكيم العليم؛ يكون علما في رصانة العلم والحكمة، والجمع بينهما، مع دخول العلم في الحكمة لعموم العلم، ودلالة الحكمة على إتقان الفعل، وللإشعار بأن ما في القرآن من العلوم منها ما هو حكمة كالعقائد والشرائع، ومنها ما ليس كذلك كالقصص والأخبار الغيبية"[2].

فمعيار الاستمرارية والخلود يجعل من المعجزة القرآنية بحرا لا ساحل له، لا تنتهي مظاهرها ومعانيها، ولا تبلى جدتها، فهي واسعة سعة علم الله تعالى، متنوعة تنوع حوادث الزمن، متجددة جدة وعي البشر لما يستجد في علومهم ومعارفهم، وتقدم العلوم والمعارف إنما يكشف لنا عن بعض ما في المعجزة القرآنية الخالدة من معانٍ، تتحدى أساطين الكشف والاختراع، يقول الغزالي(ت505هـ):"القرآن هو البحر المحيط، ومنه

(1) النمل: 6.

(2) تفسير أبي السعود، ج/6، ص:273.

يتشعب علم الأولين والآخرين، كما يتشعب عن سواحل البحر المحيط أنهارها وجداولها"(1).

وهو بهذا يؤكد أن أسرار كثير من الآيات القرآنية لا يحيط بها إلا من أحاط بالعلوم الحقة، إذ بعد أن ذكر جملة من العلوم مما كان سائداً في عصره، أو مما اندثر، أو مما هو محتمل الحدوث، قال:"ثم هذه العلوم ما عددناها وما لم نعدها ليست أوائلها خارجة عن القرآن، فإن جميعها مغترفة من بحر واحد من بحار معرفة الله تعالى، وهو بحر الأفعال"(2).

فإذا كان المنهج الرباني في تبليغ رسالته الخاتمة قد ارتكز على معايير العالمية والتجدد، والاتساق والتوافق، والاستمراية والخلود، فإنه جعل لها منطلقات شرعية مؤكدة ومعضدة. فما تلكم المنطلقات الشرعية التي تؤيد مشروع الإعجاز العلمي بكونه مدار هذه المعايير في الوقت الحاضر؟.

المبحث الثاني: المنطلقات الشرعية للإعجاز العلمي في الاعتبار الشرعي.

المطلب الأول: مظاهر تنويه الاعتبار الشرعي بالعلم والنعم الكونية:

لقد عظم الإسلام شأن العلماء، ورغب في طلب العلم والتماسه، ورفع الخطأ من مرتبة التجاوز في جميع الأعمال إلى مرتبة الجزاء والثواب في مجال العلم، ونوّه بفضل الحكمة وبمنزلتها وبسمو مكانة من أوتيها في قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾(3)، وقرن شهادة أولي العلم بشهادته تعالى وشهادة الملائكة كما في قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾(4)، ورفع مكانتهم وجعلهم أهل خشيته في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾(5)، وأوصى بهم في التماس العلم والحق في قوله تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾(6).

---

(1) جواهر القرآن، ص:21.
(2) جواهر القرآن، ص:21.
(3) البقرة: 269.
(4) آل عمران: 18.
(5) فاطر: 28.
(6) النحل: 43.

وما ثناء البلاغ القرآني في كثير من المواضع بالعلم والعلماء إلا دعوة صريحة وطريقة ممهدة لإعمال النظر العقلي السديد في النعم والمظاهر الكونية، فكثيرا ما اجتمعت متتابعة متقاربة في إشارة إلى الوصل بين العلم والآيات والنعم الكونية يقول الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ (1).

فهذا الوصل ينبئ بأن الذين أوتوا العلم هم المؤمنون العارفون الموقنون؛ فتارة يشير البلاغ القرآني إلى أن إعمال النظر العقلي السديد يجلي خبايا المظاهر والنعم الكونية، كقوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (2)، وتارة يشير إلى أن الوصول إلى مرتبة العلم يكون عن طريق النظر السديد في المظاهر والنعم الكونية؛ كقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ (3).

فلما كان الفهم سديدا لمدلول العلم في القرآن المجيد والسنة النبوية المطهرة، وللظواهر والقوانين العلمية؛ نجد أن هذا الوصل قد تركز بقوة في التفكير المنهجي للعقل المسلم في مرحلة من مراحل الزمن الزاهر من التاريخ الإسلامي، إذ أصبح وصلا حضاريا تسلق به العلماء المكانة المرموقة اللائقة بهم بين جميع الأمم؛ بفضل اجتهادهم في جميع نواحي العلم ودقائقه، فبرعوا في العلوم الشرعية جنبا إلى جنب مع نبوغهم في اختصاصات علمية متعددة ودقيقة؛ بفضل إيمانهم بمدلول العلم في القرآن الكريم، وبفضل اعتقادهم الراسخ بأن العلوم مفسرة للقرآن، وأن القرآن مفسر للعلوم، وأنهم باجتهاداتهم العلمية المتنوعة التي شملت الشرع والإنسان والكون، يزدادون قربة من الله تعالى ، من منطلق إقامة شرعه في تحقيق مبدأ الاستخلاف على الأرض بالإصلاح والتعمير، ومن خلال استجابتهم لدعوات البلاغ القرآني للتفكر في آيات الأنفس والآفاق.

المطلب الثاني: دعوات البلاغ القرآني للتفكر في الآيات الكونية.

---

(1) العنكبوت: 49.

(2) الذاريات: 20.

(3) ق: 6-7.

لقد جاء البلاغ القرآني في كثير من المواضع متضمنا أسلوب القسم؛ قسم الله تبارك وتعالى بذاته وبآياته ونعمه الكونية، ولا تخلو تجليات أركان القسم ـ خاصة المقسم به والمقسم عليه ـ من حكمة ومناسبة، ولعل من الحكم البليغة إعمال التفكر وتوجيه النظر إلى المقسم به بكونه آية من آيات الله، فيكون الإقسام بتلك الآية وسيلة لتوجيه نظر الإنسان إليها وتدبر ما فيها من عبرة، باستنهاض العقول، وتوجيه الأفهام، وإيقاظ الحواس، وتنبيه المشاعر، كما أن البلاغ القرآني قد انتهج الأسلوب نفسه لذم الغافلين والمعرضين عن الآيات الكونية، ونعى عليهم غفلتهم وإعراضهم. وأكثرأقسام القرآن الكريم من هذا القبيل، فجميع الآيات الكونية والنفسية التي وجه القرآن الكريم النظر إليها بأساليب أخرى جاء الإقسام بها.

ومن هذا المنطلق؛ نجد البلاغ القرآني لا يفصل في نسقه العام بين توجيهاته وإرشاداته ما بين المدلول اللغوي والبعد الكوني؛ في إشارة تجلي معالم الحقائق إلى تطابق ما بين الوحي المقروء والوحي المنظور، فالإعجاز العلمي حاضر بقوة من خلال دعوات التفكر في آلاء الخالق، حيث بين أن ذلك من سمات أولي الأبصار وأولي الألباب وأصحاب الخشية، فسخر الله - عزوجل - العلم لفهم بعض آياته في الكون وإبداعه في الخلق، لأن العلم أقوى مؤيد لدعوة التوحيد والإيمان بما يكشف عنه من آيات الله في الآفاق وفي الأنفس، ونسبة الآيات الكونية إلى القدرة الربانية، وعزو أحداث الكون إلى مشيئة الله وقدرته-عزوجل- أفادنا الزمخشري(ت538هـ) بهذا الخصوص القول:"إن هذا الموعود من إظهار آيات الله في الآفاق وفي أنفسهم؛ سيرونه ويشاهدونه، فيتبينون عند ذلك أن القرآن تنزيل عالم الغيب،الذي هو على كل شيء شهيد، أي مطلع مهيمن، يستوي عنده غيبه وشهادته، فيكفيهم ذلك دليلاً على أنه حق، وأنه من عنده"(1).

لذلك كان واجب على أمة (اقرأ) أن تتسلح بالأسلحة العلمية؛ لكي تبرز للعالَمين بعضا مما جاء به الوحي المقروء من إعجاز علمي، يشهد بتطابقه التام مع الوحي المنظور، وأنهما من مبدع وخالق واحد، وليس من العجب أن يكون في هذا العصر الإعجازُ العلميُّ المتضمنُ في المعجزة الخالدة أبلغ المسالك وأوقعها في النفوس وأقربها للتأثير في

(1) الكشاف للزمخشري، ج 4/ ص:212.

العالمين، فيردهم من غفلة الظلمات إلى نور قواعد الدين ومبادئه، ويُبصرهم بحكمه وأحكامه، وليس من المستبعد أن نجد من العلماء الماديين من هو أقرب العالمين إلى التوحيد والإيمان، إذ تقدمت العلوم في جميع مجالات الحياة، وزاد التطابق بين الوحيين المقروء والمنظور، قال الله تعالى:﴿سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلاَ تَسْتَعْجِلُونِ﴾(1)،وقال تعالى:﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾(2)،ولقد أنبأنا ابن كثير(ت774هـ) في شرحه لهذه الآية الكريمة بالقول:"أي: سنظهر لهم دلالاتنا وحججنا على كون القرآن حقا منزلا من عند الله على رسول الله -ﷺ- بدلائل خارجية في الآفاق"(3).

ولبلوغ مرتبة التدبر والتفكر في آيات الأنفس والآفاق ومعانيها المستمدة من وراء الغيب المحجوب، كان لزاما تتبع أصول المعرفة الإسلامية التي مزجت ما بين خزائن الغيب المحجوب وعجائب الكون المشهود، ولقد لخص لنا الصحابي الجليل جندب بن عبد الله رضي الله عنه تجليات الكمال النفسي الذي يبلغه المتدبر في الآيات الكونية في قوله:"كنّا مع النبي -ﷺ- وَنَحْنُ فِتْيَانٌ حَزَاوِرَةٌ(4)، فَتَعَلَّمْنَا الْإِيمَانَ قبل أَنْ نَتَعَلَّمَ الْقُرْآنَ، ثُمَّ تَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ، فَازْدَدْنَا بِهِ إِيمَانًا"(5).

المطلب الثالث: منطلق اتّساق أصول المعرفة الإسلامية:

لقد جاء الوحي المقروء لحسم إشكالية الهُوية المعرفية للإنسان، فهو البيان المصور والمفصل للكون والإنسان، والهادي والموجه للتعامل المباشر معهما، بهدف تحقيق مبدأ الاستخلاف في الكون وإعماره وإصلاحه، وبهدف الوصول بالإنسان إلى الكمال النفسي المنشود، فمن خلاله يتعرف الإنسان على منطق الفكر ومنهج الحياة وحقيقة الكون والإنسان، لذلك فهو يقدم للبشرية بناء معرفيا متينا، يقوم على الاتّساق والتكامل بين ظواهر الكون وحقائق النفس وغايات الوجود، فبين الوحي الإلهي المتمثل في

(1) الأنبياء: 37.

(2) فصلت: 53.

(3) تفسير ابن كثير، ج/4، ص:106.

(4) حزاورة: جمع حزور، ويقال أيضا حزور إذا قارب أن يبلغ، انظر: غريب الحديث لابن قتيبة، ج3/ص:758، وهو المعنى نفسه بلسان العرب، ج/4، ص:187.

(5) أخرجه ابن ماجه في سننه، باب في الإيمان، وصححه الألباني، ح/61، ج1/ص:16.

القرآن الكريم والسنة النبوية، والوجود الكوني المتمثل في عالم الشهادة المحيط بالإنسان، وبين الكتاب المسطور والكتاب المنظور تشابهٌ ووحدةٌ واتساقٌ وتكاملٌ، فكلاهما ينطقان الحقائق ذاتها، ويتسمان الخصائص نفسها، حتى كأن الوحي كون مقروء، والوجود الكوني وحي منظور.

وبذلك يكون الوحي بنوعيه قد وضع الأسس المنهجية للتفكير الإنساني السديد بانتهاجه أقوى الطرق اليقينية لمصادر المعرفة الإنسانية، عمودها وذروة سنامها الوحي الإلهي، فمنه تبتدئ العلوم والمعارف وإليه تنتهي.

وثانيهما العلم الفطري والمعرفة الاكتسابية: أجمل البلاغ القرآني ذكر هذه الطرق اليقينية الثلاثة في قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾[2].

كما أن هذه الآية الكريمة جاءت مبينة لمجالات المعرفة، محددة لها في عالمي الغيب والشهادة، فمعرفة عالم الشهادة تدرك بطريقي الحواس والعقل، ومعرفة عالم الغيب تدرك بطريق الوحي إن كان غيبا محضا، كالجنة والنار، وتدرك بطريق العقل والوحي إن كان غيبا متعقلا كوجود الله.

والجدير بالذكر في هذا السياق أن هذه الطرق اليقينية لمصادر المعرفة الإنسانية متسقة مؤتلفة لا متنافرة متضادة، فالدليل القائم على الطريقة العقلية قسم من منظومة الأدلة الشرعية، وليس قسيما لها، وهو ملازم للدليل النقلي القائم على الوحي، بهذا التقرير يمكن إدراك العلاقة المنسجمة بين العقل والوحي، لكن العلاقة بينهما تسوء إذا حاولنا أن نفصم عرى الوثاق بينهما، يقول ابن تيمية (ت728هـ):"الأدلة العقلية والسمعية متلازمة، كل منهما مستلزم صحة الآخر، فالأدلة العقلية تستلزم صدق الرسل فيما أخبروا به، والأدلة السمعية فيها بيان الأداة العقلية التي بها يُعرَف اللهُ وتوحيدُه وصفاتُه،

(1) العلق: 1 ـ 5.

(2) يوسف: 109.

وصدقُ أنبيائه، ولكن من الناس من ظن أن السمعيات ليس فيها عقلي، والعقليات لا تتضمن السمعي، ثم افترقوا: فمنهم من رجح السمعيات وطعن في العقليات، ومنهم من عكس، وكِلا الطائفتين مقصر في المعرفة بحقائق الأدلة السمعية والعقلية"(1).

لذلك فإن القول بالإعجاز العلمي أو التفسير العلمي ينبغي أن يستند إلى الاتساق التام ما بين الاعتبار الشرعي والنظر العقلي فيما يخص التدبر والتفكر في آيات الأنفس والآفاق، لأن "التفكير الإسلامي يتميز بالتوازن في مصادره، فهو يستمد مادته من وراء الغيب المحجوب ومن صفحة الكون المشهود."(2).

فإذا كانت المنطلقات الشرعية للنظر في الآيات الكونية تستمد شرعيتها من مظاهر التنويه بالعلم وبالنعم الكونية في البلاغين القرآني والحديثي، وتنسجم مع الاستجابة لدعوات التفكر في آيات الآفاق والأنفس، وتتأصل بالاحتكام إلى أصول المعرفة الإسلامية، فما المرتكزات المهيمنة والضابطة لقواعد ومحددات النظر العقلي في الآيات والمظاهر الكونية؟.

المبحث الثالث: مرتكزات النظر العقلي السديد:

مما لا شك فيه أن مشروع الإعجاز العلمي ينبني في نسقه العام على النظر في نصوص الوحي (القرآن الكريم والسنة النبوية) التي تناولت المظاهر الكونية في ضوء الاكتشافات العلمية الحديثة، ولكي نمكن لهذا المشروع الواعد صحة الوجهة، ونضمن له تحقيق الأهداف المتوخاة؛ حتى يتبوأ المكانة اللائقة به إلى جانب باقي علوم القرآن، فنحن بحاجة ماسة إلى تأصيل له وضبط لمساره وتصحيحه بين الفينة والأخرى، بضبط قواعده ومرتكزاته المنهجية لِيُتَجَنَّب الإفراط فيه أو التفريط، دون الوقوع في خطأ تحميل النصوص ما لا تحتمل، وفق الآتي:

المرتكز الأول: الفهم السديد للقرآن المجيد:

الفهم السديد للنصوص التي تناولت المظاهر الكونية في ضوء قواعد التفسير وأصوله المتعارف عليها عند أهل صناعة التفسير للجمع بين الحفاظ على تعظيم القرآن وما يتبع ذلك من احترام خير القرون وما أثر عنهم في تفسيره، واقتحام ميادين جديدة للبحث

(1) درء تعارض العقل والنقل: ابن تيمية، ج8/ ص: 24-25.

(2) التفكير المنهجي وضروراته: فتحي حسن مكاوي، مجلة إسلامية المعرفة،عدد:28، ص: 76.

عن إعجاز البلاغ القرآني، وحتى نأمن في هذا المجال من ليّ النصوص أو تأويلها كي توافق الاكتشافات العلمية المعاصرة.

ومبدأ الفهم السديد للآيات الكونية الواردة في البلاغ القرآني بالتبحر في تفاسير السلف التي ترتكز على تفسير القرآن بالقرآن، مرورا بالتفسير الموضوعي بجمع الآيات الكونية التي تناولت قضية واحدة والجمع بين دلالاتها والتنسيق بينها(1).،فقد ربى النبي -ﷺ- أصحابه على هذا المنهج القويم، روى البخاري أن رسول الله -ﷺ- فسر مفاتح الغيب في قوله تعالى: ﴿وعِندَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إلاَّ هُوَ﴾(2)، فقال: مفاتح الغيب خمس، ثم قرأ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ويُنَزِّلُ الغَيْثَ ويَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ ومَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً ومَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(3).

ومن هذا القبيل ما كان يلجأ إليه الصحابة -رضوان الله عليهم- من الجمع بين الآيات القرآنية التي يُظنُّ بينها تعارضٌ، وقد وضع العلماء بعدهم قاعدة في أصول التفسير تقتضي بأن أول ما يرجع إليه المفسر القرآن الكريم، إذ ما أُجمل في مكان قد فصل في آخر، وما أطلق في آية إلا قد قيد في أخرى، وما ورد عاما في سورة، جاء ما يخصصه في سورة أخرى، وهذا اللون من التفسير هو أعلى مراتب التفسير وأصدقها إذ لا أحد أعلم بكلام الله من الله(4).

ولاشك أن البلاغ القرآني قد جاء لهداية الناس إلى الطريق المستقيم وإخراجهم من الظلمات إلى النور، بكون الهداية الوظيفةَ الأساسيةَ له، فاتبع لتحقيق ذلك عدة أساليب منها الإشارة إلى بعض الحقائق العلمية في سياقات تنسجم مع وظيفة الهداية التي جاء بها،لذلك يستوجب على أولي النهى الالتزام المنهجي الضابط لتفسير الآيات الكونية باتباع أصول التفسير الصحيح، وضوابط التأويل السليم الذي ينسجم ويتسق مع الوظيفة الأساسية للقرآن الكريم، وذلك بوضع قواعد وقوانين ناظمة تكون مناط

(1) للوقوف على آليات منهج التفسير الموضوعي، يراجع دراسات في تفسير القرآن للدكتور/ محسن عبد الحميد، ص:152، والإعجاز العلمي في القرآن للدكتور عبد الله المصلح، ص:28.

(2)الأنعام: 59.

(3) لقمان: 34.

(4)وللوقوف على أحسن طرق التفسير التي تعارف عليها أهل العلم يراجع: البرهان، للزركشي، ج2/ص:176، والإتقان، للسيوطي، ج/2، ص:467.

استرشاد للباحثين في الإعجاز العلمي، فبالسير على منهج واضح وضوابط واضحة، نتفادى مزالق كثيرة، ونتجنب الوقوع في الأخطاء، والانزلاق وراء تأويلات وهمية، والالتزام بها يساعد بشكل كبير على تقليص الفجوة الفكرية بين المؤيدين للتفسير العلمي والمعارضين له بفضل تقارب الفهم السديد للقرآن المجيد.

وهذا يحيلنا إلى معيار مهم في فهم الآيات الكونية وتفسيرها بما توصلت إليه الكشوفات العلمية القطعية، يتأسس على مرتكز الوحدة، وحدة الحقيقة وإن تنوعت مسالكها، وتعددت مناهج طَلَبِها، وبخاصة إن ارتقت تلك المسالك والمناهج إلى مرتبة القطع واليقين.

المرتكز الثاني: خاصية الوحدة في مختلف تجلياتها الوجودية:

ينبغي إدراك أن الاعتبار الشرعي فيما يخص الآيات الكونية يقدم رؤية شاملة للوجود، لا تُناقض النظر العقلي السديد، فإدراكه من خلال شمولية واتساق القوانين العلمية لخصائص التشابه والاتساق والتكامل بين المكونات الكونية لَيَسْتَلْزِمْ بالضرورة العقلية القول بوحدة الخالق، وهذا إعجاز في حد ذاته، فاتحاد نصوص الآيات الكونية مع الحقائق العلمية الثابتة لا النظريات المتغيرة، ينبئ في الوقت نفسه عن وحدة المصدر، حيث يتحد الوحي المقروء بالوحي المنظور.

إن البحث في الإعجاز العلمي يستلزم استحضار القوانين المسددة للنظر العقلي، التي ترتكز على المنهج الوحدوي في الاستدلال والتحليل والاستنباط، بوصفه لا ينظر إلى المعرفة باختلاف تجلياتها بوصفه شذرات متفرقة، كل منفصل عن الآخر، ولا يجمعها نظام متسق؛ بل إن النظر بمنهج وحدوي إلى المعرفة الإنسانية مع اختلاف تجلياتها لَيَعْكِسُ وحدة أجزاء الوجود الكوني رغم تباينها، وحدة تتناغم في كيانها حكمة الخالق من الوجود والخلق، قال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ العَالِمُونَ﴾ (1)، قال تعالى:﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (2).

(1) العنكبوت: 43.

(2) فصلت: 53.

فكل ما يحيط بالإنسان من عوالم المادة والفكر والنظام والجمال هي حقائق تشهد لخالقها بالعظمة والقدرة، ولسان ينطق بالتوحيد والعظمة والجلال، ولما دعا البلاغ القرآنيّ الإنسان إلى إعمال الفكر والنظر والتأمل في هذه العوالم المختلفة، دعاه أيضا إلى انتهاج النظرة المعمقة لا النظرة السطحية الظاهرية، فبالارتكاز على التفكر والتدبر في مخلوقات الله تعالى، تبصر النفوس حقائق الأشياء، وتخرق بصيرتها حجب الظواهر، فتقف على حقيقة الوجود، حيث تتحول النظرة العادية إلى نظرة عبادة تحملنا من الظاهر المشهود إلى الباطن المحجوب، ومن معرفة المخلوق إلى معرفة الخالق ـ عز وجل - قال الله تعالى:﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ﴾ (1)، وهو قوله تعالى:﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْءَانَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (2).

فتسديد النظر العقلي يرتكز على توخي المنهج الوحدوي المتعلق بالآيات الكونية وعرض الاكتشافات والقواعد العلمية على المنهج الوحدوي على أساس أن الوجود الكوني بتباين أجزائه ومكوناته من الذرة الصغيرة إلى المجرة الكبيرة يمثل وحدة متناسقة متجانسة، وكأنها أجزاء في آلة واحدة، أو أعضاء في جسد واحد، أو لبنات في بناء متناسق بديع، كل لبنة منه في مكانها الصحيح، ولو اقترح تعديل شيء أو تبديل شيء عن موضعه، ونقله إلى غير مكانه لأدى ذلك إلى فساد عظيم، فالسبحانه في كتابه العزيز: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (3). وهو من أعظم الأدلة على أن الإله واحد، لا إله غيره، ولا رب سواه، وأنه ليس هناك من ينازعه أو يغالبه أو يشاركه.

يقول سيد قطب في ظلال القرآن: "وهذه التسبيحة تنطلق في أوانها في موضعها، وترتسم معها حقيقة ضخمة من حقائق هذا الوجود، حقيقة وحدة الخلق، وحدة القاعدة والتكوين، فقد خلق الله الأحياء أزواجًا، النبات فيها كالإنسان، ومثل ذلك غيرهما (مما لا يعلمون) وإنّ هذه الوحدة لتشي بوحدة اليد المبدعة التي تُوجِد قاعدةَ التكوين مع اختلاف الأشكال والأحجام والأنواع والأجناس والخصائص والسمات في هذه

(1) الملك: 3.

(2) الحشر: 21.

(3) الأنبياء: 22.

الأحياء التي لا يعلم علمها إلا الله، ومن يدري فربما كانت هذه قاعدة الكون كله حتى الجماد"(1).

فإذا كان الاعتبار الشرعي يقر بوحدانية الله - سبحانه وتعالى - فإن النظر العقلي السديد يعضد هذا الاقرار من خلال التصديق بوحدة الخلق المستلزمة لوحدة الخالق.

الشيء الذي يحيلنا إلى مرتكز في غاية الأهمية عند القول بتسديد النظر العقلي الحاصل في الكشوفات والنظريات العلمية وتقريبه من الاعتبار الشرعي الوارد في الآيات الكونية، من خلال الاتساق الداخلي للآيات الكونية والاتساق الخارجي الحاصل بين الآيات الكونية والوجود الكوني.

المرتكز الثالث: خاصية التكامل في تعدد وتباين أبعادها الكونية:

تسديد النظر العقلي فيما يخص الإعجاز العلمي أو التفسير العلمي يستلزم العمل بمنهج الاتساق، واستحضار حقائق تجلياته التي تكمل وتعضد المنهج الوحدوي أثناء الربط بين الآيات الكونية والوجود الكوني، فهو الأمان للنظر العقلي من مغبة الانزلاق وراء تأويل أو تفسير غير سليم بل قد يحدث تعارضا تتنزه عنه الآيات الكونية، فوحدة الخلق تستلزم وحدانية الخالق، ووحدانية الخالق دليل الاتساق الكوني، ولقد عبر عنه البلاغ القرآني بالقول: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾(2).

فالاتساق الكوني هو الذي مكن البشرية من تحقيق مبدأ الاستخلاف في الأرض بالعمارة والإصلاح، وما كانت لتبلغ هذا المنال لولا اتساق مكونات الكون وارتباط بعضها ببعض في نظام دقيق، مكن من بروز الأشياء وظهورها في صورة مواد أو خصائص أو علاقات أو أحداث، فمن خلال الاتساق أو الوحدة في النظام الكوني نتمكن من إدراك استمرارية المواد كأشياء وتكرار الحوادث كعلاقات سببية. ومن دون هذا النظام الكوني لا يمكن معرفة ماهية الأشياء ولا الأسباب ولا النتائج.

فالاتساق الكوني مُحْدَثٌ بسنن خالقه ومُحْدِثِهِ، جعلها الله - تبارك وتعالى - تؤدي وظيفتها في هذا العالم وتسري إلى كل جزء وكل جانب منه، تنبئك تلك السنن الكونية بأن خالقها آخذ بأعناقها، متحكم فيها، ومدبر لها، فهو الحي الفعال لما يريد، فالاتساق

(1) في ظلال القرآن، ج6/ص:166.

(2) الأنبياء: 22.

الكوني مبني على أن لكل سبب سبباً، لكن الأسباب كلها بيد رب الأسباب، فكل موجود يوجد، وكل حدث يحدث في عالم الحوادث إنما يتم بأمره، قال الله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾(1).

فهذا التقدير هو أساس المنهج الاتساقي المسدد للنظر العقلي في الآيات الكونية والوجود الكوني، فهو الذي يعطي كل شيء طبيعته وعلاقته بالأشياء الأخرى، ومنهجه في الوجود عبر نظام اتساقي يربط بين الأسباب والغايات، لأن لكل شيء غاية ومسوغًا لوجوده يخدمه من خلال حياته، هذه الغاية ليست نهائية أبدًا، وإنما هي دائما خاضعة لغايات أخرى تكوّن معها سلسلة تنتهي نهايتها عند الله الذي هو الغاية المطلقة والنهاية التي إليها يعود كل شيء، ﴿فَسُبْحَانَ الذي بيده مَلَكُوتُ كل شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(2).

ولما كان لكل مخلوق غاية يعمل لخدمتها، وكانت كل الغايات مرتبطة ببعضها بعضاً برباط السبب والنتيجة، فإن كل هذا يجعل من الكون نظاما غائيا هادفا،نابضا بالحياة مفعما بالمعنى، فكل تلك الأجزاء متفاعلة في النظام الواحد، حيث إن كل كائن له وظيفته، ودوره في حياة الكل، وهي معا تكوّن بناء عضويا تتفاعل أجزاؤه وأعضاؤه بطرق لا يزال البشر في بداية الطريق إلى اكتشافها بفضل العلم، لكن في أجزاء محدودة جدا من الطبيعة.

لذلك فمنهج الاتساق ضابط لمشروع الإعجاز العلمي والتفسير العلمي من الخلل والانزلاق وراء تأويلات وهمية قد تضر به أكثر مما تنفعه، فتتبع السنن الكونية وإيجاد رابط لها بالآيات الكونية مبناه على نهج يراعي اتساقا داخليا بين الآيات الكونية فيما بينها من جهة، بتسديد النظر العقلي بالفهم السديد للقرآن المجيد، واتساق خارجي فيما بين الآيات الكونية والوجود الكوني بوصف الوحدة والتكامل، وهنا نتساءل إذا ما حدث تعارض بين الاعتبار الشرعي للآيات الكونية والنظر العقلي في المظاهر الكونية؟كيف السبيل لإيقاع توازن بينهما؟.

المبحث الرابع: الموازنة بين الاعتبار الشرعي والنظر العقلي:

المطلب الأول: حتمية الاتساق:

---

(1) الفرقان: 2.

(2) يس: 83.

يشهد العقل السديد بأن العقائد الإسلامية أنزهُ العقائد وأبعدُها عن مخالفة المعقول، والوحيدة في قوة الحجة ومتانة البرهان، ففي البلاغ القرآني أصول الدلائل العقلية على صحة هذه العقائد مع الرد على من خالفها بأجلى بيان، وفي تشريعاته وأحكامه وآدابه ما يطهِّر القلوب والنفوس وأحوال الدين والدنيا، وبالنسق الاتساقي نفسه تضمن البلاغ الرباني في القرآن والسنة دعوات للتفكر في آيات الأنفس والآفاق لما لذلك من آثار في ترسيخ الإيمان من خلال التفكر في عظمة الله، وتدبر آثار رحمته، والإحساس بوجوده، تدبُّرٌ يحول بين الإنسان والانفكاك عن خالقه، فهو يشاهد ويرى تجلي أسماء الله سبحانه، ويحس آثار صفاته من عدل وحكمة وعلم وقدرة ...إلخ، قد ملأت الأنفس والآفاق، وتجلت أنوارا ساطعة في كل حقيقة علمية يصل إليها العقل السديد، لتُشْهِدُ الوجودَ على نفسه بأنه مخلوق من مخلوقات الله تعالى العلي العظيم.

ومن هنا تظهر إلزامية الاتساق بين الآيات الكونية الواردة في البلاغ القرآني والسنن الكونية التي توصلت إليها العلوم الكونية والإنسانية في شتى المجالات ذات الصلة بالكون المادي، والنفس الإنسانية، والمجتمعات البشرية، وأن هذه السنن هي نفسها التي عبر عنها البلاغ القرآني في آياته الكونية، وجعلها متحكمة في عالم المادة وعالم الإنسان والظواهر الإنسانية، إذ إن الآيات الكونية كتاب مسطور، والمظاهر والسنن الكونية كتاب منظور.

فاستحضار معيار الاتساق له أهمية عظيمة في بعث توازن علمي بين الاعتبار الشرعي للآيات الكونية والنظر العقلي المحدد لتجلياتها في الآفاق والأنفس، تتعدد تجلياته؛ لتشمل مصادر المعرفة(النقل، والعقل)، وأصول العلم(الوحي، والحس، والعقل)، ومجالاتها(عالم الغيب، وعالم الشهادة)، وهذا الاستحضار النوعي لتعدد مظاهر الاتساق والتعاضد المؤطرة لمشروع الإعجاز العلمي من الانفلات والانحدار، يتقوى بالاستمداد من العلوم الشرعية ذات الصلة، والعلوم الكونية المستخلصة عن طريق التطبيق والتجريب.

المطلب الثاني: الوعي بعلوم القرآن ومباحثه وبعلوم العصر وقوانينها:

يستمد مشروع الإعجاز العلمي علميته من الاعتماد على البحوث المتخصصة في العلوم التفسيرية، والعلوم التطبيقية والتجريبية، والجمع بينهما، على أمل توظيفهما في بيان

الآيات الكونية والعلوم الكونية الواردة في البلاغ القرآني، وذلك يستلزم توفر أهلية علمية ترتبط بالباحث، والاحتكام إلقواعد ومنهجية علمية ضابطة للاجتهاد في هذا المجال[1]، ويتعزز تحقيق الأهداف المتوخاة بالإفادة الاستشارية والتوجيهية من قبل أهل الاختصاص، بالاعتماد على ما تقرره الهيئات والمراكز المتخصصة في جوانبه ومستجداته، بهدف تحكيم البحوث وتقييمها وتقويمها، حسما للفوضى والتشويش، ودرءًا لعناصر التلبيس والتدليس، وتفاديا للانزلاق وراء تفسيرات غير علمية، فالاجتهاد في التفسير العلمي لا يكون بمجرد الرأي والتشهي والاختراع؛ لقوله تعالى:﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾[2]، أي: بلا عقل صحيح ولا نقل صريح، بل بمجرد الرأي والهوى[3]، أو الاجتهاد من غير أصل لقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾[4]، وقوله عزوجل:﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[5]، فلا يجوز لأحد الخوض في علم دون الإلمام به واكتمال أهليته له، وبخاصة علمُ التفسير؛ لأنه مرتبط بكلام الله تعالى، وبالغايات الاستخلافية على الأرض، فليس الاجتهاد في تفسير كتاب الله أقل شأنا من الإفتاء، فكلاهما توقيع عن رب العالمين[6].

ومن هذا المنطلق تظهر أهمية تكوين مراكز علمية متخصصة، تشمل نخبة من الباحثين في هذا المجال من حيث علوم التفسير والعلوم التجريبية التطبيقية بهدف تبادل

---

(1) يمكن الرجوع في هذا الصدد إلى ما خلص إليه د/مرهف عبد الجبار سقا برسالته "التفسير والإعجاز العلمي في القرآن الكريم، ص: 177، حيث حدد للتفسير ضوابط وشروطا وأركانا، منها ما يرتبط بالباحث، ومنها ما يتعلق بالبحث أو التفسير العلمي.

(2) الحج: 8.

(3) تفسير ابن كثير، ج/3، ص:209.

(4) الاسراء: 36.

(5) الأعراف: 33.

(6) لمزيد نظر في هذا الأمر يراجع: كتاب التحبير(ص: 129 وما بعدها)، للسيوطي، بباب:"من يقبل تفسيره ومن يرد"، حيث تحدث في شروط من يقبل تفسيره من حيث الرواية إن كان ناقلا عن السلف، وعن التفسير بالرأي والتأويل، ومن يقبل رأيه في التأويل، وأوصاف من يرد تفسيرهم بالقول: "... ولا يقبل ممن عرف بالجدال والمراء، والتعصب لقول قاله، وعدم الرجوع إلى الحق إذا ظهر له، ولا من يقدم الرأي على السنة، ولا من عرف بالمجازفة وعدم التثبت أو الجرأة والإقدام على الله وقلة المبالاة"، المصدر نفسه، ص: 131.

الخبرات والآراء في إطار الاجتهاد الجماعي المؤسساتي دون إغفال دور نشر البحوث والدراسات المحكمة، وعقد الندوات والمجامع والمؤتمرات.

فهذه الأمور مجتمعة هي الكفيلة بصيانة وحفظ هذا المشروع العلمي من الأهواء والعبثية والتخبط، ولا يعني هذا التقليل من شأن البحوث الفردية، فلها أهمية واضحة بشرط الاحتكام لأهل الاختصاص في شتى المجالات المتعلقة بمختلف جوانب البحث.

المطلب الثالث: كيفية الترجيح عند التعارض:

إن من خصائص الرسالةِ الخالدةِ العالميةَ واليسرَ ورفعَ الحرج، منبعها البناء اللفظي لنصوص الوحي التي جاءت في أنساق، تجمع بين ما هو ظني الدلالة وقطعي الدلالة، مما يفتح باستمرار المجال للاجتهاد واختلاف الآراء. ولو شاء الله تعالى لجعلها جميعا محكمة قطعية الدلالة، فكان هذا النسق ينسجم مع خلود الرسالة وخاتميتها وعمومها للعالمين، فمن شأن الاختلاف توفير إمكانات واختيارات وبدائل في معالجة النوازل والمستجدات، كما أنه يعكس رؤى المجتهدين وتنوع ثقافاتهم وتقديرهم للحالة أو الوضعية موضع النظر، وهذا يضفي على الأحكام طابع اليسر والسهولة، ويجعلها قريبة من معاناة الناس ومشاعرهم.

وعلى نفس النسق نفسه طبعت به الآيات الكونية في البلاغ القرآني، فمنها نصوص قطعية الدلالة وأخرى ظنية الدلالة، فما كان منها قطعي الدلالة، فهو مقدم في الاعتبار على ما هو ظني الدلالة في النظر العقلي، وإن توافقا معا من حيث القطعية، فذلك الأمل المنشود، لكن إذا وقع ـ ظاهريا ـ تصادم بين آيات كونية قطعية الدلالة وبين قطعي من النظر العقلي، فإما أن يكون هناك خلل ولَبس في اعتبار قطعية أحدهما، فإن تبين أن الآيات الكونية قطعية الدلالة لا لَبس فيها، رد النظر العقلي، وأما إن كان النظر العقلي قطعي الدلالة والآيات الكونية ظنية، أُوِّلَ الظني بالقطعي.

ولكي يحصل التوافق والاتساق الخالي من التصادم والتنافر في مسلك تقريب النظر بين الاعتبار الشرعي والنظر العقلي، ينبغي كذلك اعتماد القوانين والقواعد العلمية بدل النظريات؛ حتى يتضح المعنى ويستقر التفسير، وتتحدد دلالات ألفاظ النصوص.

فإذا تم الالتزام الحرفي بهذا المنهج في التوفيق ما بين الاعتبار الشرعي والنظر العقلي، يمكن أن يصبح الإعجاز العلمي مسلكًا من المسالك الجديدة في تفسير نصوص الوحي

خاصة الآيات الكونية، والتوفيق الحتمي بين الوحي المقروء والوحي المنظور، الشيء الذي تترتب عليه بحور خير منهمرة تتعلق بالثمرات العلمية لمشروع الإعجاز العلمي.

المبحث الخامس: الثمرات العلمية:

المطلب الأول: علمية مشروع الإعجاز العلمي وموضوعيته:

من الثمرات العلمية التي يمكن جنيها من وراء الدراسات الرصينة التي تعنى بالإعجاز العلمي، الإقرار بعلمية مشروع الإعجاز العلمي وموضوعيته، فيمكن تأمين صناعة التفسير العلمي من مزالق الانحراف، حيث يصل الأمر ببعض المفسرين إلى تطويع الآيات الكونية وليّ عنق نصوصها لفهم سقيم، وتصورات خاطئة، فيتم إخراج نصوص البيان الواضحات إلى معان ينبو[1]عنها سطوع اللغة ووضوحها، ويأباها العقل ويرفضها السياق، مثال ذلك: ادعاء محمد عبده(ت1905م) بأن العذاب الذي سلط على أصحاب الفيل إنما هو مرض الجدري والحصبة، وتفسيره للطير أبابيل بالبعوض، أوما يسمى اليوم بالميكروب، وتشبيهه للحجارة المرماة عليهم بالطين المسموم بقوله:"وقد بينت لنا هذه السورة أن ذلك الجدري أو تلك الحصبة نشأت من حجارة يابسة،سقطت على أفراد الجيش بواسطة فرق عظيمة من الطير مما يرسله الله مع الريح، فيجوز لك أن تعتقد أن هذا الطير من جنس البعوض أو الذباب الذي يحمل جراثيم بعض الأمراض، وأن تكون هذه الحجارة من الطين المسموم اليابس الذي تحمله الرياح، فيعلق بأرجل هذه الحيوانات، فإذا اتصل بجسد دخل في مسامه، فأثر فيه تلك القروح التي تنتهي بإفساد الجسم وتساقط لحمه، وإن كثيرا من الطيور الضعيفة يعد من أعظم جنود الله في إهلاك من يريد إهلاكه من البشر،وأن هذا الحيوان الصغير الذي يسمونه الآن بالميكروب لا يخرج عنها،هذا ما يصح الاعتماد عليه في تفسير السورة،وما عدا ذلك فهو مما لا يصح قبوله إلا بتأويل إن صحت روايته."[2].

وعلى المنهج نفسه درج قبله شيخه الأفغاني(ت1897م) في تفسيره للآيات الكونية عندما تعدى الأمر للكلام في الأمور الغيبية، ليعطيها تصورا طبيعيا لا علاقة له بالآية التي يفسرها،مثال ذلك عندما يفسر قوله تعالى:﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ

---

(1) يرتفع، لسان العرب، ج15/ص: 303.

(2) تفسير جزء عم لمحمد عبده، ص: 158، ط/ بولاق عام: 1322هـ.

بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً﴾ (1)،يقول:أي: خارجة عن محورها غير راضخة للنظام الشمسي، وإذا ما حصل ذلك، فلا شك يختلف ما عرف من الجهات اليوم، فيصير الغرب شرقا والجنوب شمالا، وبذلك الخروج عن النظام الشمسي، وما يحدثه من الزلزال - لا شك - تتبعثر أجزاء الأرض،لبعدها عن المركز وتنسف الجبال نسفا تتحول براكين هائلة، وبالنتيجة تخرب الكرة الأرضية ويعمها بما فيها من حيوان وتقوم القيامة(2).

فمثل هذه المزالق غير المقصودة إذإن أصحابها مشهود لهم بالعالمية، ربما قد دفعتهم الحماسة والعاطفة إلى تبني هذه التفسيرات غير العلمية؛ لكونها غير مسايرة للسياق ولسطوع اللغة ووضوحها، فسعوا إلى إسقاط المصطلحات العلمية الاختصاصية على دلالات القرآن، وتفسير الغيبيات والمعجزات بالطبيعيات بغير دليل أو مستند(3).

على أساس أن التفسير العلمي اجتهاد بشري، فهو اجتهاد قابل للخطأ والصواب، إلا أنه ينبغي ضبطه بالقواعد العلمية المقررة في العلوم الشرعية؛ لكي يكون تفسيرا محمودا مقبولا مراعيا شروط التفسير وموافقا للأصول الشرعية والقواعد الكلية؛ لذلك فتعدد الدراسات وتنوعها في مجال الإعجاز العلمي والتأصيل لمنهجية مؤسسة لمشروع الإعجاز العلمي يعتمد في نسقه العام على المعارف المبنية على التثبت والحجية، قال الله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ (4).

فلابد للنظر العقلي المؤطر لمشروع الإعجاز العلمي أن تكون المعرفة فيه مقترنة بدليل يناسب الاعتبار الشرعي في سياق ورود الآيات الكونية، ليتم التمييز بين التفسير العلمي الصحيح أو الضعيف، ولإكساب الملكة في حسن فهم الآيات الكونية التي لا تنتهي عجائبها بمعرفة واعية وإدراك راشد، فيكون المشروع واعدًا يجمع بين النظرية والتطبيق على حد سواء، فتكسبه عمقا في التأصيل ودقة في التحليل، تمنع كل مختص من اختراق هذه القواعد أو القفز عليها بدعوى من الدعاوى، كما أنها تمنع كل من لم يتأهل لهذا العلم

(1) الكهف: 47.

(2) منهج المدرسة العقلية،لفهد الرومي، ص: 98.

(3) يراجع في هذا السياق: كتاب "التفسير العلمي في القرآن الكريم (ضوابط وتطبيقات)، ص: 151، حيث عقد صاحبه مبحثا عن بدايات الانحراف في التفسير العلمي، وموقف الاستشراق من التفسير العلمي.

(4) الإسراء: 36.

من أن يُقحم نفسه فيه بغير قواعد وضوابط، فتقيد وتقلل نسبة الخطأ المتجاوز عنه في باب الاجتهاد، وهنا يمكن لنا الحديث عن تفتيق منهج ذي جدة ورصانة في تفسير الآيات الكونية الواردة في الكتاب المجيد.

المطلب الثاني: تفتيق منهج جديد في تفسير الآيات الكونية يتميز بالجدة والرصانة:

إن الإعجاز القرآني بحر لا ساحل له، وغور لا قاع له، فمن أيّ جهة ارتشفت من رحيقه وشهده وجدت الشفاء والهداية، فهو إعجاز عام في كل أنواع المعرفة، خالد يتحدى الزمن، قال الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾(1).

فلو اشرأبت ألباب أولي النهى لاستشراف توجيهاته وإرشاداته لَفَنِيَ القرطاس(2)، ونفدت الأنفاس، وما انكشف لنا من أسراره إلا قليلا ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾(3)، فلا يغور في سحائبه إلا من كان ريانا على شروطه وضوابطه، فلما كانت المعجزة القرآنية خالدة، وخلودها في تجددها الذي يطابق خصوصية كل جيل وزمان، ولما كان الزمن المعاصر زمن الكشوفات والاختراعات العلمية، كان لزاماً علينا أن نسخر ما نبغت فيه الإنسانية من علوم كونية وإنسانية في فهم بعض آيات الله في الكون وإبداعه في الخلق، ولن يتأتى لنا ذلك إلا بالعلم؛ لكي نبرز بعضا مما في كتاب الله من كنوز وجواهر ولآلئ علمية في هذا العصر.

لذلك فالتفسير العلمي الذي يتوخى بيان معاني القرآن المجيد باستقراء العلوم الكونية، أو بتوظيف العلوم التطبيقية والنظريات العلمية، يعدُّ مقدمة ضرورية للوصول إلى الإعجاز العلمي الذي هو ثمرة التفسير العلمي وغايته، فالاحتكام إلى الضوابط والحقائق العلمية أثناء تفسير الآيات الكونية يمكن أن يُصَيِّرَ التفسير العلمي منهجا مستقلا معروفا إلى جانب مناهج التفسير المعروفة، وإن كان هذا المنهج في التفسير ليس بدعا أو أمرا طارئا على علوم القرآن بالمعنى العام، وإنما له جدوره في العلوم الإسلامية على أساس أن

(1) الكهف: 109.
(2) لسان العرب، ج6/ص:172.
(3) الإسراء: 85.

القصد هو استخدام مختلف العلوم في بيان كلام الله تعالى، أو استنباط العلوم من القرآن[1].

فبتجدد الاجتهاد في تفسير الآيات الكونية الواردة في المعجزة القرآنية، ومسايرة العلوم الكونية والإنسانية ذات الصلة ومتابعة مستجداتها يتجدد الفهم السديد للقرآن المجيد وتتوسع دلالاته، وقد سبق للأسلاف أن أشاروا بالقول:"إنك لن تفقه كل الفقه حتى ترى للقرآن وجوها كثيرة"[2]، شريطة أن لا يكون ذلك مدعاة لمعارضة النصوص المحكمة إذ اعتبار اتساقها وتعاضدها واجب في فهم البلاغ القرآني.

إن التفسير العلمي لبنة جديدة تنضاف إلى نظيراتها في فهم الخطاب القرآني المعجز، له أصوله وقواعد البحث فيه تكون منارة هدى للمهتمين والمشتغلين في التفسير العلمي، وحافزا لهم في زيادة ضبط صناعة التفسير عموما والإعجاز العلمي على وجه الخصوص، ولكي يصبح منهجا من مناهج التفسير، يراد به بيان سعة دلالة ألفاظ البلاغ القرآني واحتوائه أصول العلوم الكونية والإنسانية المستجدة لكل الأجيال إلى يوم القيامة[3]، فهي دلالة حضارية لا تنقضي عجائبها، بل تفتح آفاقا علمية جديدة للإنسانية باستمالة المهتمين بها لدراسة مناهج المسلمين وأصول المعرفة الإسلامية.

المطلب الثالث: ثمرة انفتاح المعرفة الإنسانية على أصول المعرفة الإسلامية ومناهجها:

إن الشريعة الإسلامية الغراء قد أوتيت من المحاسن والمزايا ما جعلها تنفرد بالصدارة بين الشرائع الأخرى ذات الوضع البشري، فلقد قامت حضارتها العلمية والثقافية على مصدر لم تقم عليه أي حضارة أخرى، وحي موصول من السماء امتزج فيه الوحي المقروء بالوحي المنظور، فكان الوحي المقروء الأصل الأول لمادة علومها وتشريعاتها، والمدد الذي يحفز أبناء الأمة الإسلامية لفهم ما حولهم من مشاهدات وثقافات ومعارف، فجاءت الرسالة من عالم الغيب ممدودة بحبل الله المتين من السماء إلى الأرض؛ لتربط الإنسان بأصله الحقيقي، ولتشعره بسعة الكون، وربوبية الخالق -

---

(1) يراجع: التفسير العلمي والإعجاز العلمي في القرآن الكريم، ص:103، حيث عقد صاحبه د/ مرهف عبد الجبار سقا فصلا كاملا عن التفسير العلمي للقرآن من القرون المفضلة إلى العصر العثماني، دار محمد الأمين، دمشق- سوريا، ط/1، 1431ه/2010م.

(2) رواه عبد الرزاق في مصنفه عن أبي الدرداء، ح/20473، ج/11، ص:255.

(3) التفسير العلمي هنا لا يخرج عن المنهج المعروف في صناعة التفسير عموما.

عز وجل - المحيطة بكل شيء، ثم لتعلمه بقصته كاملة من النشأة حتى المصير، وما له في ذلك كله وما عليه، فجاء القرآن لذلك في صورة بلاغ رباني للعالمين في كل زمان ومكان، قال عز وجل: ﴿هَذَا بَلاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ (1).

لذلك فإن تحقق الأهداف المتوخاة من مشروع الإعجاز العلمي يمكن أن يفتح آفاقا واعدة أمام المهتمين بالعلوم الإنسانية عموما؛ ليعبروا منه عبر مسالك ذات أبعاد نفسية وفكرية واجتماعية وثقافية تطل على الحضارة الإسلامية في أبهى صورها، حيث يمكن أن يأخذ الدين الإسلامي طريقه منها إلى نفوس العالمين بيّنا واضحا؛ لينتفع به من أراد أن ينتفع، فإن ذلك برهانٌ في أعلى درجات الإقناع، وما ذلك إلا صورة من صور خلود المعجزة القرآنية وعالميتها واستمراريتها عبر كل الأجيال، ومنطلقٌ لتوسع الإسلام وانتشاره؛ ليراه الناس على حقيقته، فيؤمن به من يختار منهم الإيمان، ويستفيد منه من يرى فيه الفوائد.

يقول الزرقاني(ت1948م):"القرآن أثبت أن للاجتماع نواميس ثابتة قبل أن يتخيلها أعلم علماء الأرض تخيلا، وقد رأيت أن تعيين تلك النواميس، والتحسس مما خفي منها هو الشغل الشاغل اليوم لفلاسفة الاجتماع"(2)، ويضيف:"فالذي يتأمل في سبق القرآن الكريم العالم كله أكثر من عشرة قرون في وضع أصول العلم الاجتماعي، ويكون من غير أهل هذا الدين يدهش كل الدهش، ولا يكاد يصدق عينيه، وسندأب نحن من جهتنا على تجلية الأصول العلمية، مستخرجين إياها من الكتاب الكريم، ليتحقق العالم أنه على ما يقوله موحيه سبحانه وتعالى: ﴿ما فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شيء﴾ (3)"(4).

فهو من جهةٍ يمكن أن يكون - مشروع الإعجاز العلمي - حافزا للمسلمين أنفسهم للعودة إلى معدن عزتهم ونهضتهم؛ فيلتفتوا إلى القرآن من جديد، ينظرون إليه بعيون مستبصرة وفكر متقد، عودة تتسع لكل الباحثين في العلوم الإنسانية لكي ينهل منه كل

---

(1) إبراهيم: 52.

(2) مناهل العرفان، ج2/ص:281.

(3) الإسراء: 38.

(4) مناهل العرفان، ج2/ص:282.

واحد منهم بحسب حاجياته ملبين دعوة القرآن لهم، ومن جهة أخرى يمكن أن يستميل كل العقول النيرة الباحثة في السنن الكونية والهدي الروحي والنفسي، حيث يجدون فيه الدواء والشفاء لكل العلل والأسقام، قال ابن القيم:"فإن القرآن كله شفاء، فهو شفاء للقلوب من داء الجهل والشك والريب، فلم ينزل الله - سبحانه - من السماء شفاء قط أعم ولا أنفع ولا أعظم ولا أنجع في إزالة الداء من القرآن"(1).

فهذا الفتح العظيم لن يكون من فراغ، بل إن مبناه على مرتكزاته القائمة على أصول المعرفة الإسلامية، التي جاءت في نسق يناسب الفطرة البشرية، فيه احترام عظيم للعقل الإنساني يتناسب مع منزلة ملكة التفكر التي هي أساس في الاقتناع.

إن العلوم الإنسانية عموما والعلوم الكونية خصوصا تدل على أن هناك سننا وقوانين تحكم هذا الكون الماديَّ، والنفس الإنسانية، والمجتمعاتِ البشريةَ، وهذه السنن هي نفسها التي يعبر عنها البلاغ القرآني في آياته الكونية، وتحكم بشكل تلقائي عالم المادة وعالم الإنسان والظواهر الإنسانية، وليس المعنى أن القرآن المجيد كتاب علوم أو نظريات علمية، وإنما هو كتاب رباني المصدر يشير إلى بعض الحقائق العلمية في سياقات تنسجم مع وظيفة الهداية التي جاء بها.

لذلك، فالبشرية اليوم بفضل التقدم العلمي والتكنولوجي في مختلف مجالات الحياة، أضحت مهيأة أكثر من أي وقت مضى لقبول البينة العلمية التي أجملها البلاغ القرآني في قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ﴾(2)، وفي هذا بيان على تجدد الرسالة الخالدة الخاتمة من حيث الظهور والبيان، بانتقالها من مرتبة إلى أخرى من مراتب البيان، فهي هنا تنقل التحدي من تجليات الوحي المقروء إلى تجليات الوحي المنظور، وهذه نقلة هائلة لم تكن البشرية مهيأة لها قبل.

خاتمة: تضمنت أهم النتائج والتوصيات والمقترحات:

- للبحث أهمية عظيمة تتعلق بجدته وبارتباطه في العمق بالجانب المنهجي لهذا المشروع الجديد الواعد، الذي يروم سد الثغرات العلمية التي اعترت بعض جوانبه

---

(1) الجواب الكافي، ج1/ص:3.

(2) فصلت:53.

التطبيقية، ويتوخى الإسهام بموضوعية علمية في بناء صرح عتيد له، يقيه مزالق الكبوة، وزلات الإفراط ومهاوي التفريط.

- البحث يتناول الإعجاز العلمي من زاوية مهمة تتعلق بإعماله بين الاعتبار الشرعي والنظر العقلي، حيث خلص إلى ضرورة وضع المشروع برمته في سياق يتعلق في العمق بالمنهج الرباني في تبليغ رسالاته وتأييد رسله بالمعجزات، فمن منطلق معيار العالمية والتجدد الذي تميز به المعجزة القرآنية يستمد الإعجاز العلمي انتماءه إليها بحكم اتساقه وتوافقه في ظل الاستمرارية والخلود.

- إن المنطلقات الشرعية للنظر في الآيات الكونية تستمد شرعيتها من مظاهر التنويه بالعلم وبالنعم الكونية الواردة في البلاغين القرآني والحديثي، وتنسجم مع الاستجابة لدعوات التفكر في آيات الآفاق والأنفس، وتتأصل بالاحتكام إلى أصول المعرفةالإسلامية.

- إن تتبع السنن الكونية وإيجاد رابط لها بالآيات الكونية مبناه على نهج يراعي اتساقاداخليا بين الآيات الكونية فيما بينها من جهة، بتسديد النظر العقلي بالفهم السديد للقرآن المجيد، واتساقا خارجيا فيما بين الآيات الكونية والوجود الكوني على أساس الوحدة والتكامل.

- إن استحضار معيار الاتساق له أهمية عظيمة في بعث توازن علمي بين الاعتبار الشرعي للآيات الكونية والنظر العقلي المحدد لتجلياتها في الآفاق والأنفس، تتعدد تجلياته لتشمل مصادر المعرفة (النقل، والعقل)، وأصول العلم(الوحي، والحس، والعقل)، ومجالاتها(عالم الغيب وعالم الشهادة)، وهذا الاستحضار النوعي لتعدد مظاهر الاتساق والتعاضد المؤطرة لمشروع الإعجاز العلمي من الانفلات والانحدار، يتقوى بالاستمداد من العلوم الشرعية ذات الصلة، والعلوم الكونية المستخلصة عن طريق التطبيق والتجريب.

- ولكي يحصل التوافق والاتساق الخالي من التصادم والتنافر في مسلك تقريب النظر بين الاعتبار الشرعي والنظر العقلي، ينبغي كذلك اعتماد القوانين والقواعد العلمية بدل النظريات؛ حتى يتضح المعنى، ويستقر التفسير، وتتحدد دلالات ألفاظ النصوص.

- أشار البحث إلى مجموعة من الثمرات العلمية التي يمكن جنيها من وراء الدراسات الرصينة التي تعنى بالإعجاز العلمي، تتعلق بالإقرار بعلمية مشروع الإعجاز العلمي وموضوعيته، وأنه بتجدد الاجتهاد في تفسير الآيات الكونية الواردة في المعجزة القرآنية، ومسايرة العلوم الكونية والإنسانية ذات الصلة ومتابعة مستجداتها، يتجدد الفهم السديد للقرآن المجيد وتتوسع دلالاته.

- إن تحقق الأهداف المتوخاة من مشروع الإعجاز العلمي يمكن أن يفتح آفاقا واعدة أمام المهتمين بالعلوم الإنسانية عموما؛ ليعبروا من خلاله عبر مسالك ذات أبعاد نفسية وفكرية واجتماعية وثقافية تطل على الحضارة الإسلامية في أبهى صورها، حيث يمكن أن يأخذ الدين الإسلامي طريقه منها إلى النفوس بينا واضحا لينتفع به من أراد أن ينتفع، فإن ذلك برهانٌ في أعلى درجات الإقناع، وما ذلك إلا صورة من صور خلود المعجزة القرآنية وعالميتها واستمراريتها عبر كل الأجيال، ومنطلقٌ لتوسع الإسلام وانتشاره؛ ليراه الناس على حقيقته، فيؤمن به من يختار منهم الإيمان، ويستفيد منه من يرى فيه الفوائد.

- خَلُصَ البحث في نهايته إلى أهمية تكوين مراكز علمية متخصصة، تشمل نخبة من الباحثين في هذا المجال من حيث: علومُ التفسير والعلوم التجريبية التطبيقية بهدف تبادل الخبرات والآراء في إطار الاجتهاد الجماعي المؤسساتي دون إغفال دور نشر البحوث والدراسات المحكمة، وعقد الندوات والمجامع والمؤتمرات، فهذه الأمور مجتمعة هي الكفيلة بصيانة وحفظ هذا المشروع العلمي من الأهواء والعبثية والتخبط، ولا يعني هذا التقليل من شأن البحوث الفردية، فلها أهمية واضحة بشرط الاحتكام لأهل الاختصاص في شتى المجالات المتعلقة بمختلف جوانب البحث.

قائمة المصادر والمراجع

* القرآن الكريم.

1. الإتقان في علوم القرآن، لعبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي، لأبي بكر(ت911هـ/1505م)، تح: سعيد المندوب، دار الفكر بيروت/لبنان، ط/1، 1416هـ/1996م.

2.إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم (تفسير أبي السعود)، لأبي السعود محمد بن محمد العمادي: (898-982هـ/1493-1574م)، دار إحياء التراث العربي - بيروت/لبنان، د.ت.

3.الإعجاز العلمي في القرآن والسنة تاريخه وضوابطه، لعبد الله المصلح، طبعة هيئة الإعجاز العلمي: 1417هـ/1997م.

4.البرهان في علوم القرآن، لمحمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي، لأبي عبد الله، (ت745-794هـ/1344-1392م)، تح: أبو الفضل محمد إبراهيم، دار المعرفة بيروت/لبنان – 1391هـ/1970م.

5.التحبير في علوم التفسير، لجلال الدين السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر: (ت849-911هـ/1445-1505م)، تح: عبد القادر عطا، الكتب العلمية، د.ت.

6.التفسير العلمي والإعجاز العلمي في القرآن الكريم، لمرهف عبد الجبار سقا، دار محمد الأمين، دمشق/سوريا، ط/1، 1431هـ/2010م.

7.تفسير القرآن العظيم(تفسير ابن كثير)، لإسماعيل بن عمرو بن كثير الدمشقي، عماد الدين، أبي الفداء:(ت774هـ/1372م)، دار الفكر بيروت/لبنان، ط/1401هـ/1980م.

8.تفسير جزء عم، لمحمد عبده، طبعة بولاق عام: 1322هـ.

9.التفكير المنهجي وضروراته، لفتحي حسن مكاوي، مجلة إسلامية المعرفة، عدد28.

10.الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، لأحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني الدمشقي، تقي الدين، أبي العباس(ت728هـ/1328م)، تح: علي حسن ناصر، عبدالعزيز إبراهيم العسكر، محمد حمدان، دار العاصمة بالرياض/السعودية، ط/1، 1414هـ/1994م.

11ـ الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (الداء والدواء)، لمحمد بن أبي بكر أيوب الزرعي، أبي عبد الله، ابن قيم الجوزية: (ت691 -751هـ، 1292-1350م)، دار الكتب العلمية – بيروت، د، ت.

12.جواهر القرآن، لأبي حامد محمد الغزالي الطوسي، الغزالي: (ت450-505هـ/ 1058-1111م)، تح: محمد رشيد رضا القباني، دار إحياء العلوم - لبنان، ط/1، 1405هـ-1985م.

13. درء تعارض العقل والنقل، لتقي الدين أحمد بن عبد السلام بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية، تح: عبد اللطيف عبد الرحمن، دار الكتب العلمية بيروت/لبنان: 1417هـ/1997م.

14.سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني الشهير بابن ماجه، أبي عبد الله(ت273هـ/887م)، حكم على أحاديثه وآثاره وعلق عليه محمد ناصر الدين الألباني(ت1420هـ/1999م) بعناية مشهور بن حسن آل سلمان أبي عبيدة، مكتبة المعارف بالرياض/السعودية، ط/1، 1417هـ/1996م.

15.صحيح مسلم بشرح النووي، أبوزكريا محي الدين يحيى بن شرف الدين النووي، (ت676هـ/1278م)، تقريظ: محمد السمالوطي الأزهري، المطبعة المصرية بالأزهر/مصر، ط/1، 1349هـ/1930م.

16. صحيح مسلم، لمسلم بن الحجاج القشري النيسابوري، أبي الحسن(ت261هـ/875م)، دار الكتب العلمية ببيروت/لبنان، ط/1: 1412هـ/1991م.

17. غريب الحديث، لعبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري أبي محمد(213-276هـ/828-889م)، تح: عبد الله الجبوري، مطبعة العاني ببغداد/العراق، ط/1، 1397هـ.

18.فتح الباري بشرح صحيح الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (برواية أبي ذر الهروي عن مشايخه الثلاثة السرخسي(أبومحمد عبد الله بن أحمد) والمُسْتَمْلي(أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد) والكُشْميْهَني (أبو الهيثم محمد بن مكي)، أحمد بن علي بن حَجَر العسقلاني شهاب الدين أبو الفضل، الشافعي(ت852هـ/1448م)، تح: عبد العزيز بن

عبد الله بن باز، محمد فؤاد عبد الباقي، محب الدين ال خطيب، دار المعرفة بيروت/لبنان، طبعة (1380هـ/1960م).
19.في ظلال القرآن، لسيد قطب، الناشر، دار الشروق، ط/9، 1400هـ.
20.الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لمحمود بن عمر بن أحمد الزمخشري الخوارزمي أبي القاسم(ت538هـ/1143م)، تح: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت/لبنان، د.ت.
21.كشف المشكل من حديث الصحيحين، لجمال الدين عبد الرحمان بن علي بن محمد بن الجوزي، أبو الفرج(ت597هـ/1200م)، تح: علي حسين البواب، دار الوطن بالرياض/السعودية، طبعة(1418هـ/1997م).
22.لسان العرب، لمحمد بن مكرم بن منظور الأفريقي
المصري(ت630ـ711هـ/1232ـ1311م)، دار صادر بيروت/لبنان، ط/1، د.ت.
23.مصنف عبد الرزاق، لعبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري الصنعاني، أبي بكر(ت211هـ/827م)، تح: حبيب الله الأعظمي الباكستاني، المكتب الإسلامي ببيروت/ لبنان، ط/2، 1403هـ/1983م.
24.مناهل العرفان في علوم القرآن، لمحمد عبد العظيم الزرقاني(ت1367هـ/1948م)، دار الفكر بيروت/ لبنان، ط/1، 1416هـ-1996م.
25.منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير لفهد الرومي، ط/2، الرياض: 1403هـ.